سعد زهران (١)

ظللت تائها وسط أحداث جسام كانت تهز العالم والوطن مثل الحرب العالمية والنازية وصمود الاتحاد السوفيتى ودوره فى انكسار هتلر.. حتى حضرت محاضرة فى دار الأبحاث العلمية، وشعرت كأن حزمة ضوء مبهر قد أنارت أمامى الطريق.
(سعد زهران.. فى حواره معى)

كثيرا ما يختلف الشيوعيون مع بعضهم البعض، خصوصا فى ظل معارك مبهمة البدايات، غامضة النهايات، وكثيرا ما يختلط الصراع ضد العدو الطبقى بالصراع ضد «العدو» فى التنظيمات الشيوعية الأخرى، وقد يقف البعض ضد إتجاه الريح لبعض الوقت، لكن سعد زهران حالة فريدة، حادة جدا وتقف بصاحبها دوما ضد إتجاه الريح، وحتى ضد ما يعتقد الإجماع أنه مسلمات لا يجوز المساس بها.

كان دوما النقيض للجميع، الجميع يتناقضون مع بعضهم البعض أما هو فهو النقيض المتناقض مع الجميع، تأمل معى عزيزى القارئ بعضا من مفارقات سعد زهران، يقول الجميع إن معركة كوبرى عباس كانت مذبحة بكل المعايير، ويروى الكثيرون عن مشاهد الجثث التى تراكمت فى مشرحة كلية الطب وفى مشرحة زينهم إلا هو، فسعد يؤكد كان هناك جرحى رأيتهم بنفسى فى قصر العينى لكن لم يمت أحد. ويسألك متحديا هل لديك اسم واحد لواحد ممن استشهدوا؟، ويتحدث الكثيرون بزهو عن حركة الفدائيين فى منطقة القنال عام ١٩٥١، أما هو فيفاجئك بأنها كانت حركة محدودة وبدائية جدا، ويزهو كل اليساريين فى مصر والعالم العربى بالإنذار السوفيتى خلال العدوان الثلاثى (١٩٥٦) هو يؤكد أنه لم يكن إنذارا جادا بل تلويحا وهميا وأن الرادع الحقيقى كان الإنذار الأمريكى .

وفى جلسة صاخبة تحدث أحدهم بزهو عن انتصار أكتوبر فتأمل سعد وجوه الحاضرين وقال فى ١٩٥٦ حاربنا ثلاثة أيام وفى ١٩٦٧ حاربنا ستة أيام وفى أكتوبر

حاربنا ١٣ يوما والمجموع ٢٣ يوما بينما ظلت حالة الحرب والأحكام العرفية معلنة ما يزيد على ٢٥ عاما، قليلون جدا هم الذين يقبلون هذا المنطق، أو حتى يحتملون سماع هذه التحليلات المخالفة للمنطق السائد، ويبقى سعد زهران مغردا على انفراد أو بالدقة يبقى هو وعدد محدود جدا من الرفاق محاصرين بهذا المنطق الحاد الذى يطلقه عبر كلمات مدببة وشديدة السخونة ومغلفة بسخرية قاتلة، ويبقى سعد زهران مصمما على أن يكون الصورة الأخرى، يبقى دوما فى الاتجاه المعاكس مستمتعا بسخريته من المجموع وبكونه فى أقلية الأقلية، لكنه كان على الدوام مسموع الكلمة، ويهاب الجميع منطقه.

هذا هو الرجل فماذا عن النشأة؟ الأب مدرس أولى ظل يرتدى الجبة والقفطان حتى نقل إلى الإسكندرية فارتدى زى الأفندية، الأسرة أسرة فلاحين وبعضهم عمال بناء، والشيخ عبدالقوى والذى أصبح فيما بعد عبدالقوى أفندى هو وحده الذى أفلت من هذا المصير، الولد سعد كان متفوقا أرسله أبوه إلى الفصول التجريبية التى كانت نواة للتعليم العصرى وضمت المتفوقين وحدهم فتفوق هو على المتفوقين وحصل على المجانية بما شجع الأب على الدفع به إلى بقية مراحل التعليم، كانت مدرسته فى الجيزة وبيتهم فى الشرابية والمسافة طويلة جدا يقطعها التلميذ الفقير سيرا على الأقدام فعرف القاهرة بأدق تفاصيلها وعرف المعاناة اليومية كى ينال حق التعليم، وذات يوم يذكره هو جيدا (١٧ نوفمبر ١٩٣٦) وكان فى نهاية المرحلة الابتدائية وقع له حادث أدى إلى بتر ساقه، الأب والأم جلسا طويلا يتناقشان حول مصير الولد، الأب اقترح أن يترك سعد المدرسة وأن يعمل ترزيا فهى مهنة لا تحتاج إلى وقوف كثير، لكن الفتى العنيد وقف كما ظل دوما ضد المنطق السائد والمعقول وتحدى الإعاقة، وفى مدرسة فاروق الأول الثانوية دخل سعد ينط على عكازه وسط طلاب أغلبهم من أبناء الأكابر، يستند دوما على عكازه لكنه يستند أيضا إلى تفوق دائم، فهو الأول فى سنوات الدراسة، لكن ما كان يوجعه حقا هو أن التفوق ليس كافيا وحده كى يحصل على المجانية، فلا يكفى أن تكون الأول وإنما من الضرورى أن تقدم «شهادة فقر» واعتاد سعد على أن يعيش وأن يتعايش مع العكاز ومع الفقر، وكما يقفز على العكاز يقفز عبر سنوات الدراسة متفوقا فيحصل على التوجيهية بتفوق «كان ترتيبه الأول على المدرسة والـ ٢٤ على القطر» ودخل كلية العلوم قسم رياضة وكان لم يزل ابن السادسة عشرة، لكن لا العكاز ولا الدراسة كانت تمنع الفتى من أن يفكر فيما يدور

حوله من أحداث فهى سنوات بداية الأربعينيات التى تعج بأحداث جسام، الحرب العالمية، هتلر وموسولينى والنازية والفاشية، الغزو الهتلرى للاتحاد السوفيتى صمود ستالينجراد ولينينجراد كل هذه الأحداث كانت تفرض عليه تفكيرا مستمرا وعميقا وأحيانا كان يصل إلى نتائج تخرج كما اعتاد دوما عن السياق العام.

وذات يوم دعاه أحد أصدقائه وهو فوزى الزميتى (تفوق هو أيضا فى كلية الطب وأصبح فيما بعد الطبيب الخاص للملك فيصل)، دعاه فوزى إلى محاضرة، وهناك فى دار الأبحاث العلمية استمع إلى المحاضرة الأولى، لتهيمن تماما على فكره وكأنها سكبت عليه أشعة ضوء لا تقهر، لكنه تحامل على نفسه وكبح جماح اندفاعه حتى ينتهى من امتحان نهاية العام، وفى ذات يوم الامتحان الأخير قفز على عكازه إلى دار الأبحاث العلمية، الغريب أنه لم ينس أبدا ومع مضى الزمان هذا التاريخ، كان يحكى معى والتاريخ يهيمن عليه «فى الساعة السادسة إلا الربع من يوم ٢٨ يونيو ١٩٤٤ دخلت إلى دار الأبحاث العلمية» وقال هادئا وجادا أنا أذكر التاريخ تماما لأنه بمثابة يوم ميلادى الحقيقى، ابتسمت وقلت له لعلك سمعت شعر كمال عبدالحليم..

عيد ميلادى الذى أذكره
يوم كافحت وأحببت الكفاح
يوم أصبحت شيوعيا له
أسرة أخرى ورأى وسلاح

نظر سعد زهران إلىّ بقرف قائلا أنا لا أحب كمال ولا أحب سيرته ولكن لا بأس بأن أتمثل هذين البيتين من الشعر فقط.

ونمضى مع سعد زهران فى حواره معى